غزل المتنبي

خليل شيبوب

يجوز لنا ان نتعت بعض الابواب من الشعر كالمديح والرثاء والهجاء بانها موضوعية الى حدّ ما لان الشاعر ينظر فيها الى ممدوحه او الى خصمه ليقول ما فيهما حيناً وما ليس فيهما احياناً ما. اما الغزل في الشعر فانهُ ذاتي محض لان الشاعر ما لم يكن مقلداً او سارقاً لا يمكنهُ ان يعرب الاّ عن شعوره الخالص فيسبغ على قوافيهِ فيض احساسه وقرارة نفسه

والشاعر غزلٌ بطبيعته لانهُ مرهف الحس متسع الخيال . وها جناحان يحلق الشاعر بهما في سماء الفن . ومن كان كالمتنبي جامح العبقرية، صعب الشكيمة ، دافق النفس كان لابدّ ان يذوق سواء في افتتانهِ بالمرأة التي تظل المثل الاعلى للجمال في هذه الدنيا لانها هي الجمال بمختلف صوره ومعانيه التي تزهو فيها الحياة فتخاطب العقل والقلب والدم وتتحد فيها اغراض الحياة جميعاً

ولا اعرف في غير آداب اللغة العربية تقسيماً للشعراء يتناول جزئيات الشعر من الجهة النفسية . فبينما يقال ان شكسبير روائي وهوميروس قصصي ترانا نقول هذا شاعر غزل مثل عمر ابن ابي ربيعة او مدّاحة نوّاحة مثل ابي تمام او هجّاء مثل دعبل او وصّاف مثل ابن المعتز او ما شاكل كل ذلك من النعوت التي تعد من تفاصيل الشاعرية العامة لانّ في الرواية او القصة غزلاً ومدحاً ونوحاً وهجاء ووصفاً، وقد يجيد الشاعر الموهوب القصة والرواية معاً او يجيد هذه ولا يجيد سواها

واذا نظرنا الى المتنبي على ضوء التقسيم المرتجل اذا قلنا انهُ غزل او مدّاح او هجّاء او وصّاف لانهُ كل هذا بل هو فوق هذا كله لانهُ شاعر الحياة فهو اذن من كبار شعراء الانسانية

ان هذا الرجل الفذ الذي نبت في الطبقة الدنيا اذ كان ابوه يبيع الماء بالكوفة حدثتهُ نفسهُ ان يدّعي النبوة وان يطمح الى الامارة فعاش عيشة الجد والاستكبار متطلعاً الى غرض سامٍ اراد تحقيقه من طريق النبوّة ثم قذف بهِ من حالق فعمد الى الشعر يتخذهُ وسيلةً حتى اذا فاته ذلك الغرض عاش امته بهذا الشعر في درجة الخالدين من الانسانية . وها هو بعد الف عام من وفاته يقيم الشرق ويقعده . وتعقد لهُ الحفلات في كل بلد . وتخصص لهُ اعداد الصحف اليومية وغير اليومية فاذا كان قد فاتتهُ الامارة في عصره فانهُ بلغ امارة الشعر على العصور . واذا لم يحكم على الاجسام بسيفه وسطوته فقد تحكم في العقول والنفوس بعبقريته وقوافيه

وطالما سألت نفسي ما كان يجري لو بلغ المتنبي مأربهُ من الولاية او الامارة . أتراه يبقى على

عبقريته الفنية لم يجبر به تصريف آلة الحكم عن لاذ والفن لم يتمشى به الترف الى الثرثرة والتراخي ؟ وهو سؤال لم اقنع نفسي بأني ردّ عليه الى اليوم . . . ولكنني اميل الى الاعتقاد بأنهُ لو تم ذلك لهُ لما اختل باب التاريخ في وجه ابن الرومي دهراً . ولا رجح اسمه بأبي تمام والبحتري ولا شغل الناس عن الشريف الرضي وميهار الديلمي وابن حمديس وجميع من جاء بعده الى الحد الذي شغلهم به عنهم

وقد اجمع المؤرخون على ان المتنبي كان كثير الجد في حياته . قويم الخلق لا يميل الى لهو ولا الى دعابة . واكبر الظن انهُ لم يكن يمزح بل لعله لم يفهم الدعابة والمباسطة . وكم تصورته في مخيلتي رجلاً عصبيًّا . عابس الوجه . موبر الطبع . منغص القلب في معيشته مقيماً لكل حديث وزناً لاهمَّ له الا كسب الاموال . وبلوغ المعالي . وسبق الاقران . واثارة الاعجاب بنفسه عند الذين يحيطون به . ومن كان كذلك لابدَّ لهُ ان يتجانف عن اللهو والمزح ويعدل عن مجالس الشراب الا اذا اضطر فيها ويكبت ميله الى الحسان اذ كان العرف السائد ان العشق اذا طغى على قلب الرجل ذهب به كل مذهب . ودفع به الى الاستهتار بمجد الامور . وقعد بهمته عن جلائل الاعمال . ولا يتفق هذا لمن يطمح الى امارة وزعامة

لم تذكر التراجم العربية عن المتنبي هوًى اختصَّ بهِ امرأةً بعينها ولكننا نقرأ لهُ كما نقرأ لسواه شعراً يعرب فيهِ عن شغفه بالنساء ووتيرته بالاطلال وتمجعه من الوداع وما يلحق بهذا من وصف الحي ومساءل الحسان وسكب الدموع شوقاً . ونحول الجسم هياماً . وما شابه ذلك من مألوف الغزل الذي دأب به الشعر العربي قروناً طويلة

تلك هي النظرة العجلى في ذلك الغزل المتغشي في قصائد . ولكن القارىء المتريّث يلاحظ في ثنايا المعاني اتجاهات خاصة اذا ألِفَ بينها اتجلت له مبادىء المتنبي الغرامية — اذا جاز هذا التعبير — ففي كل شعر ما كان فيهِ مقلداً رأيت بعدهُ شعراً ذاتي جديد صادر عن شعور عميق صادق . وليس كشعر المتنبي للاستدلال بالبحث فيهِ على الذاتي منهُ وغير الذاتي . لانه صاحب اغراض خاصة . ومعان متسلسلة مبتدعة لم يسبقه اليها من تقدمه ولم يلحقه فيها من تأخر عنه لفقدانه الحاجة اليها بفقدانه الغرض منها واذ كان المتنبي لمتناول البادرة الحسنة فيتوسع فيها الى ابعد غايات الحياة من مشاعر كل عصر . واشعار كل جيل . حتى يزيدها من سبقه ومن لحق به

ولا بدَّ هنا من الاشارة الى ان ديوان المتنبي فريد بين الدواوين القديمة بكونهِ مبوَّباً على الطريقة الحديثة لان قصائده متسلسلة التنسيق تبعاً لسني النظم والانشاد لا لابواب الشعر وحروف الهجاء. وعلى الرغم من ان بعض ما نسب منها الى نظمه يابداً في صباه لا تقنع بصحة موقعها من الديوان الا ان ذلك التنسيق يساعد كل المساعدة على تتبع المتنبي في اطوار شبابه ونضوجه واكتهاله

اجل لقد اشتهر كثير من الشعراء بغرام خاص حفظ التاريخ اسم صاحبته امثال ابي نواس وجنان

وابن الاحنف وفروز وقبلها عشاق العصر الاول الاسلام ولكن المتنبي لم يشهر بحب امرأة بعينها فهل كان ذلك بمجرد مصادفة ؟ . . . لا نظن ذلك كذلك بل اظن ان مرضه بحب الامارة جعله يستنكف اقتران اسمه باسم امرأة ربما غيره بها احد ؤه وان تغنى بحب الجمال وانتسب الى زمرة العشاق فان صيته الاول ثباتاً لوجوديته وتركيباً لشامخه اذ لم يكن بمزهاة معتبراً هذه الصفة منقصة لشعوره . فالمسألة خلقية قبل كل شيء ولعلها الى جانب هذا تدخل في طبيعة المتنبي لان شعره يدل على انه كان غزلاً ملهب العاطفة الا انه كان عزوفاً عن مواقف التخصيص فهو من الفريق الذي يسميه الفرنجة «دون جوان» Don Juan — ولعل لفظة عِشِّيق (بكسر العين والشين المشددة) لا زير نساء تؤدي معناها — فهو يستصيب المرأة الجميلة كيفما عنّت له ولا يقنع بحب واحدة او اثنتين بل يعشقهن جميعاً ويصبو اليهن جميعاً وهذا الطراز من المحبين يأخذ بالصورة الماثلة التي تثير الغاطنة وتستفز نوابض القلب ولا يهمه ماوراء هذه الصورة ولعله لا يطيل التفكير بها كأنما كل صورة اذا لم تمح سابقتها فهي تضعف تأثيرها بلا ريب

وقد ابدع المتنبي يصف نفسه في مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الصنف من المحبين حيث يقول :

فما امر يوم لا اساقله ولا بذات خمار لا أريق دمي

وحيث يقول : ما لاح برق او ترنم طائر الا انتبهت ولي فؤاد شيق

وحيث يقول على التسميم :

فالثغر والنحر والمخلخل — والمعصم دائي والفاحم الرجل

وهكذا لا يمر يوم الا وقف يسأل فطينه ابن ذهبوا وماذا جرى لهم ولا يرى ذات خمار الا استنفد جهاها من وراء خمارها فشعر انه يموت حبًّا وهو ما كنى عنهُ بأراقة دمه كما انهُ يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وانما داؤه حب الثغر والنحر والمخلخل وسائر الاعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يخصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى المتنبي يفرط في التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله :

الراميات لنا وهنَّ نوافر والخاتلات لنا وهنَّ قواتل

وقوله أيضاً : لبسنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كي يصنَّ به الجمالا

وضفَّرنَ الغدائر لا لحسن ولكن خفنَ في الشعر الضلالا

وقوله وهو في درجة لا تدانى من الابداع :

ديار اللواتي دارهن عزيزة بطول القنا يحفظنَ لا بالتمائم

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسنَ في اجسامهنَّ التواعم

ويبسمنَ عن درٍّ تقلد مثله كأنَّ التراقي رصِّعت بالمباسم

وفي البيت الثاني صورة يعجز عن ابرازها أكثر الواصفين . وان الشعر الذي يؤيد هذه النظرية متوافر في الديوان كل التوافر. على ان من كان ملتهب العاطفة كثير التعشق على هذا النحو لا يبعد ولا يستغرب ان تستعبده احدى الجميلات ولو حيناً فتشعره بنار العشق التي تتلقل الضلوع . ولعلّ المتنبي وقع في العشق واكتوى بناره أيام صباه الاول على الاقل وقبل اتصاله بسيف الدولة . لانهُ لا يمكن للعبقرية مهما عظمت ان تدل صاحبها على شعور لم يحسّهُ فلا بد ان يحس بهِ ولو قليلاً لان تجسيمه عن طريق الخيال لا يستقيم الى الحد الذي يستقيم بهِ من وراء الاحساس وكل صاحب فن لا تتطرق الصورة او العاطفة الى فنه الاّ عن طريق حواسه . غير ان العبقرية هي التي تجعله يحلل شعوره ويدرس خلق النساء في تفكير وتأمل . ولم يكن المتنبي في ادبهِ صاحب فن فحسب بل هو مفكر نافذ البصيرة ثاقب النظر الى الحياة يحيط بها من شتى جوانبها . وامامهُ قد وقعت لهُ حادثة غرام واحدة أضاف الى تنقله في التعشق جعلتهُ يصف أخلاق النساء على نحو ما قال :

اذا غدرت حسناء وفت امهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبّا خامر القلب في الصبي يزيد على مرّ الزمان ويشتد

ولا شك ان هذه الابيات تشعر بشيء من القسوة في الحكم مرجعهُ الى العصر والبيئة وما عدا هذا فانهُ فيها من تفهم طبيعة المرأة ما تتقى حقيقته ما بقيت هذه الطبيعة . على انهُ في البيت الاخير مرارة ولوعة لا يحس بهما الاّ من جرب مثل ذلك الحب الذي خامر القلب في الصبي ولم يزده مرّ الزمان الاّ اشتداداً على الرغم مما خبره من تلك الاخلاق التي وصفها . واننا نعرف ما نعرف عن كبرياء المتنبي وتعاظمه حتى قال عن نفسه

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاّ لخالقه حكما

وقال كثيراً غير هذا في معرض القوة والجبروت فاذا به في معرض الحب يقول :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما حاشق من لا يذل ويخضع

فلا ريب ان شعوراً مفرطاً بالحاجة الى استرضاء حبيبة بعينها افهمه ان الخضوع صار لا بد هوانا وجعله يحرص كل الحرص على انهُ يدعي عاشقاً ويقول معتذراً :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ولا بدع في الاعراب عن خوالج صدره بالذهاب في صحة عاطفته الى اقصى غايات الوصف التي لا يوفق اليها الاّ من ذاق واختبر وهداه اختباره الى استنباط الدقائق الحية واستكناه خفيات المشاعر النفسية كقوله

جرى حبها مجري دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وقوله ايضاً : قد كنت اشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

وقوله في موقف الوداع : تنفست عن رقو غير مصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

فبلتها ودموعي مزج ادمعها وقبلتني على حوف فما لثمي

ولقد تركت تلك القبل في فمها تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

للبو كرزة ثمرٌ كانها قبل يزودها حبيب راحل

قال كثيراً من هذا الشعر الغزلي الصادق الذي يتدفق من صميم النفس والقلب. وقد ظن المتنبي ان العاشق يجب ان يكون نحيلاً فقال في صباه :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فاذا به يعجب بهذا المعنى جداً والمرء معجب بذات افكاره حتى لو كان المتنبي لذلك عاد الى نظمه ثانياً

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت في خط كاتب

وعاد فنظمه ثالثاً : وبليتي فقد السقام لانهُ قد كان لما كان لي اعضاء

ونظمهُ رابعاً باضافة شيء على المعنى :

دون التعانق فاحلين كشكلتي نصب ادقهما وضم الشاكل

وكرر معنى صدر هذا البيت خامساً :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

وهكذا بقي المتنبي شغوفاً بمعناه حذا يبالغ به في وصف النحول وصفاً يخرجهُ عن المعقول بل هو من الاغراق المرغوب عنهُ . وهو في جملتهِ لا يخرج عن قول ابن ابي ربيعة :

وتقلبت في الفراش وما تعلم الا انظنون اين مكاني

ولا شك ان المتنبي وضع معناه وضعاً ولم يقتبسهُ اقتباساً والا لما افرط في الاعجاب به حتى كرره ايضاً وهو يهجو ابن كيغلغ لما ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه فقال :

فسألوا قاتليه كيف مات فهم موتاً من الضرب ام موتاً من الغرق

وابن موتع حد السيف من شبح بغير جسم ولا رأس ولا عنق

ويصح ان نسمي البيت الاخير من الخيال المستحيل على انهُ وفق مرة واحدة الى وضع هذا المعنى في موضعه الصحيح حين صرفه الى وصف الموت فاستقام في قوله :

وما الموت الا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولم يفت المتنبي تعريف الحب ونشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويعتل الارادة فقال :

وما هي الا لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

وقال : ومن يعشق يلذ لهُ الغرام . وقال في باب التعريف :

الحب ما منع الكلام الا ألما وأقل شكوى عاشق ما أعلنا

ويعتبر هذا البيت من ادق الملاحظات النفسية المتوافرة في الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم ان في البيت تناقضاً معنوياً اذ زعم ان الحب منع اللسان من الكلام وان الشكوى لا تعلن الا بالكلام الذي منعهُ الحب فكيف يكون ذلك . على ان هذا الاعتراض لا يؤبه لهُ اذا علمنا ان العاشق الصادق يذهل في مواقف الغرام ويخجل حتى لا ينبس بحرف وهذا معنى صدر البيت ثم انه لابد لهُ ان يشكو فاذا اعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التي يحدثها الالم وهذا معنى عجز البيت . وفي تناقض العشق والعقل يقول المتنبي

يا عاذل العاشقين دع فئة اضلها الله كيف ترشدها

ويقول ايضاً : الى مَ طاعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

هذا هو موقف المتنبي من العشق والغزل الى السنة الاولى التي لحق بها بسيف الدولة . ومن ثم بدأ عند سيف الدولة حياة جديدة تقتضيه التسامي بنفسه عن كل شائبة . صوناً لكبريائه بين منافسيه فصرنا حينئذٍ نسمع مثل هذا السؤال الانكاري : أكل اديب قال شعراً متيم . . . وصار غزله صناعيًّا الا احداثه بعيدة تتجاوب في نفسه لتلك العواطف الزاخرة التي تدفقت في شعره الاول كقوله :

وكيف التذاذي بالامائل والنحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا
ذكرت به وصلاً كأني لم افز به وعيشاً كأني كنت اقطعهُ وثبا

ومثل قوله وهو يسيل حناناً : اذا زلتم ثم لم ابكم بكيت على حبي الزائل

ومثل قوله ايضاً : لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولا بد هنا من الاشارة الى افتتان المتنبي بجمال العينين لوفرة ذكرها في شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية ام هو افتتن بذات عينين جميلتين الطبعت صورتهما في قرارة صدره حتى قال

عزيز اسيٌّ من داؤه الحدق النجل عياء به مات المحبون من قبل

وقال : وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

وقال : وفتانة العينين قتالة الهوى اذا نفحت شيحاً روائحها شبا

وفي القصيدة التي ساق مطلعها الى هذا الاستشهاد على السؤال يقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

ويقول في وصف العيون مبدعاً :

ادرن عيوناً حائرات كأنها مراكز احداقها فوق زئبق

ويقول ايضاً : ألم ير هذا الليل عيناك مرؤيتي فتظهر فيه رقة وتحول

ولما اكتهل قال متغزلاً وهو صادق :

افسدت بيننا الامانات عيناها فخانت قلوبهنَّ العقول

مظلتان من المظلات التي كان قدماء
المصريين يستعملونها والعليا منهما
شبيهة بالمظلات الحديثة

عازفة العود
رسم على جدار قبر في الاقصر
من عهد المملكة الحديثة

وقد اشار الى ان الجمال اكثر ما يكون في العينين حيث قال :

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشاء تديرها بدوية فتنت بها الحلل

وما احسن قوله : كل جريح ترجى سلامته الا فؤاداً رمته عيناها

ثم ان المتنبي لما لزم سيف الدولة طفق يبعد بنفسه عن كل ما يخشى ان ينعكس عليه سوء فهمه فلم يعد يكثر من ذكر الغرام والهيام كأنهُ يريد تفهيم سيف الدولة ان نفسه لا تشغله اليوم عنه كما كانت تشغله من قبل عن سواه وان همه ان يرضيه ويظهر لدنه بمظهر الرجل الكبير الذي يستحق الامتيازات التي حصل عليها منهُ . انهُ لا يقبل الارض بين يديه ولا ينشدهُ الشعر واقفاً ويتقاضاه كذا الوفاً على قصائد معدودة فهو جدير بكل احترام على الرغم من ان حرفة الشعر لم تكن ايامئذٍ تسمو بصاحبها الى المعالي وعلى هذا شرع المتنبي يصف نفسه بالعفة والتصون كقوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد
وهل يشتهي من لا عج الشوق في الحشا محبٌّ لها في قربها متباعد

بل هو ذهب الى ابعد من ذلك فنبذ استهلال القصيدة بالغزل على طريقة اسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرةً في موضوعه والشواهد عديدة على ذلك :

— اعلى الممالك ما يبنى على الاسل — على قدر اهل العزم تأتي العزائم
— اذا كان مدح فالنسيب المقدم — بغيرك راعياً عبث الذئاب
— لكل امرىء من دهره ما تعودا — عقبى اليمين على عقبي الوغى ندم
— طوال قنا تطاعنها قصار — غيري باكثر هذا الناس ينخدع

وعشرات غير هذه من القصائد التي لا ذكر للغزل فيها البتة. وانتفخت اوداج ابي الطيب كبرياء لما علت مرتبته وانتشر اسمه في الاقطار ولقي من سيف الدولة بالغ الحفاوة والاجلال فتطورت آراؤه في النساء تطوراً عجيباً حتى صارت الانوثة شبه مصيبة عنده فهو يعتذر عن ام سيف الدولة انها انثى

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولا يقولنَّ احد ان المتنبي اراد في البيت الثاني ان يساوي بين التذكير والتأنيث وانما ساقهُ للوقف الى هذا التشبيه بعد ان قرر في البيت الاول تفضيل الرجال على النساء . وجاء بعدئذٍ يقول ان التأنيث ليس عيباً . ومعنى ذلك انهُ ليس بعيب اذا كانت ام سيف الدولة انثى ولكنهُ عيب في سواها . . . وبلغت قلة الذوق بالمتنبي وهو مسوق بآرائهِ هذه انهُ لم يستنكف حين عزّى سيف الدولة فيما بعد بفقد اختهِ الصغرى ان يقول لهُ :

واذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا

وذهب الى أبعد من ذلك فقرر ان شيمة النساء الغدر وان الدنيا غادرة فهي تشبه النساء. ولعلّ هذا الشبه جعل لفظ الدنيا مؤنثاً . فقال والضمير عائد الى الدنيا :

وهي معشوقة على الغدر لا تحـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنّث اسمها الناس ام لا

فالتأنيث والغدر ونقض العهد كل هذا واحد في نظر المتنبي . وقد لزمتهُ هذه الفكرة في الغواني الى آخر عمره فصار لا ينظر الى المرأة الاّ انها أداة لهو واستمتاع وصار غزله مادياً بحتاً حيثما عاد في ابان اكتهاله الى الغزل كقوله :

ولا ليـلة قصرتهـا بطـويلة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

وقوله : شامية طالما لهوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت به فاها

وقوله ايضاً وهو قبيح : عد وأعدها فهذا تلف ألصق ثديي بثديها الناهد

ولو لم تكن نضبت حيوية المتنبي لما قال :

فـا حرمت حسناء بالهجر غبطـةً ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

كل هذا وقع له وهو كهل في السنوات القصيرة التي قضاها بعد يأسه من التصون والتعفف ولكنه كان قد فسا عوده وجفت عواطفه واصبح لا يستلذ بالمخالجة التي تلجلج النطق وتذهل العقل بل صار يطلب الموقف المثير والمفس الوثير بل صار يعكس مواقف الغرام فيجعل المرأة تقبله وتستبيته ولم يعد طلب الوصل رجاء بل اغراء فلسفيًّا مزيجاً من اللذة والتنكير بفناء الدنيا والقارىء المتأني يعجب كل الاعجاب بهذين البيتين :

زوّدينا من حسن وجهك مادام حسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا فصلك في هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

على انهُ بعد انفصاله عن سيف الدولة ولحاقه بكافور لم في مصر حيال كافور خطته مع سيف الدولة في الانصراف عن الغزل . ولا نرى المتنبي تغزّل في مصر الاّ مرة واحدة حيثما وازن بين الحضريات والبدويات في قصيدته التي مطلعها

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

اما قصيدته التي يقول فيها : ولكن قلبي يا ابنة القوم قلّب . فقد دعا حسناءهُ ابنة القوم وفاقاً لعادة عربية قديمة تنادي بها المرأة هكذا امتداحاً لها بأن طافوماً تمتّ بهم فجعل نفسه غريباً عنها وفيها يقول

احنّ الى قومي واهوى لقاءهم وان من المشتاق عنقاء مغرب

وهل اشرف من عاطفة الحنين الى الاهل فالمتنبي يقف في مصر مواقف مشرفة لان رأسه تعلي بأطماعه المعروفة وكافور يطاوله ويمنيه واذا جاز الافتراض قلنا لعلّ كافوراً اوعز من باب السياسة الى

بعض اشياعه ان يعير المتنبي بتطلعه الى النساء ومعاقرة الخمر دفعاً عن اطاعه ولعل التهمة قرعت سمع المتنبي والاَّ فما معنى ان يدلل طويلاً بعفته وابائه واجتنابه للخمر ويذكر هاتين الخلتين مفتخراً فيقول

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب

ثم يشفق ان يتهم بالضعف في موضوع الحسان فيقول :

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تحاب

وراح يسلك في تعريف العشق مسلكاً لا يتفق مع ما سبق له في قصائده السالفة فيزعم ان العشق غرور وطمع حيث قال :

وما العشق الاَّ غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

وصار يقول ايضاً : يحب العاقلون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

فيجمع بين الحب والعقل بعد ان أشاد طويلاً بالتفريق بينهما وينسب الجهل الى عشاق الجمال وانكى من هذا قوله

مما اضرَّ بأهل العشق انهم هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تعمى عيونهم دمعاً وانفسهم في أركل قبيح وجهه حسن

كأن كل عاشق جاهل وكل جميل الوجه قبيح النفس وكأنهُ لم يكن يحب اهل العشق هؤلاء الذين يرميهم بالجهل وهو الذي قال :

وما انا الاَّ عاشق كل عاشق اعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير اهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وهو الذي قال : ضروب الناس عشاق ضروبا فاعذرهم اشفهم حبيبا

اجل لم يكن المتنبي ليجسر على الجهر باطماعه عند سيف الدولة ونحن نعرف ما كان عليهِ من الشجاعة والفروسية والعزة والسطوة بل هو من قومهِ بني حمدان في سياج من الامراء والقواد ممن لا يجوز للمتنبي ان يفكر في تخطيهم الى ملك او امارة . ولكن الحالة في مصر غير الحالة في حلب وكافور عند اسود اغتصب ملك سيده وتصدر لتصريف شؤون البلاد والعباد وليس له قوم يرتكز على عصبيته فيهم وقد الحَّ في استدعاء المتنبي ليرقم به جاهه ويدل به على غيره من الملوك فلا ضير على المتنبي اذا طلب الولاية والامارة وهو لن يتخطى اليها احداً من اهل كافور الاقربين وسواء في حلب او في مصر فان المتنبي لزم خطته في التغني بعناقيه الرقيدة واخصها بعده عن النساء وترفعه عنهن ولكن بعد ان هرب من مصر ولحق ببني بويه وقد انهارت آماله واخفقت مساعيه عاد الى الغزل واطلق لنفسه العنان في صدر قصائده على السيرة القديمة المألوفة ولكنهُ كان قد تجاوز سن العشق فجاء غزله ماديًّا كما اسلفنا وظلت المرأة كما صورتها له كبريائه بعد طور الصبا

ومن العجيب ان يذهب المتنبي ضحية امرأة عجاها فأخش فقتله اخوها . وهذا منتهى سخرية الاقدار !